البحث
١

إحتكار الخشب فى مصر الفاطمية

اعـــداد

د/ نرمان عبد الكريم أحمد

مدرس فى كلية الآداب - قسم التاريخ

جامعة المنوفية

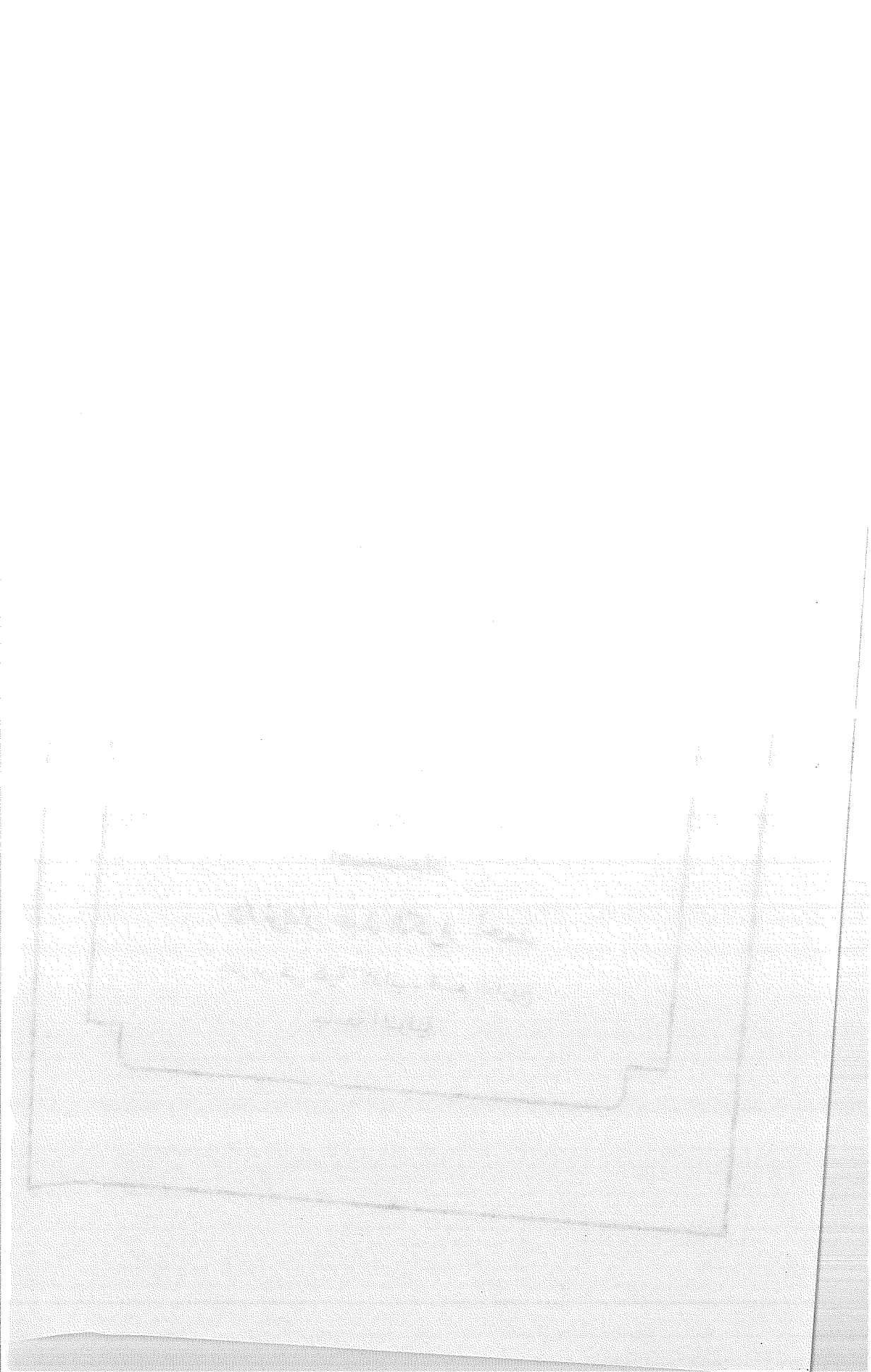

بسم الله الرحمن الرحيم

إحتكار الخشب فى مصر الفاطمية

لعب الخشب دوراً هاماً فى تاريخ العلاقات الدولية فى العصر الوسيط ، حيث استخدم كسلاح فعال فى تقرير توازن القوى العالمية آنذاك بين الدول المنتجة له والدول الفقيرة فى إنتاجه ، ولذلك كان بمثابة الورقة الرابحة التى لعبت بها بيزنطة فى التلويح بمنع تصديره إلى البلاد الإسلامية ومنها مصر ، لذلك قامت الدولة الفاطمية بإحتكاره سواء المحلى أو الذى تقوم باستيراده من المدن الإيطالية ؛ وتبدوا أهمية الخشب لمصر لعدة أسباب منها موقعها الذى يحتم عليها أن تبتوأ مركزاً سياسياً وتجارياً مميزاً ، وطبيعة الفترة التى ظهر فيها الفاطميون ، وارتباط هذا الاحتكار بمقدرات السياسة الدولية من حيث اتساع ممتلكات الفاطميين فى العصر الفاطمى الأول ثم فقدان بعضها تدريجياً ، وقيام أربع ممالك صليبية فى بلاد الشام . وفوق كل ذلك دور بيزنطة فى محاولتها الحظر على المدن الإيطالية فى توريد الخشب لمصر ثم فقر العالم الإسلامى فى إنتاج الخشب ورداءة بعض المحلى المنتج منه .

فكان من الطبيعى أن تهتم الدولة الفاطمية بهذه السلعة الحيوية منذ مجيئها إلى مصر لتحقق أهدافها العسكرية سواء لإقامة إمبراطورية على حساب العباسيين أو ليقف الأسطول الفاطمى نداً للأسطول البيزنطى فى البحر المتوسط ، فضلاً عن احتياجها لأسطول تجارى بحرى لتستطيع أن تقوم بتجارة العبور بين الشرق والغرب و كذلك أسطول نهرى ، حيث لعب نهر النيل دوراً هاماً فى هذه التجارة مستفيدة فى إنشاء هذه الأساطيل بخبرة المصريين ، الذين برعوا فى هذه الصناعة.

وموقع مصر الجغرافى قد أهلها للارتباط بالدول المحيطة بها من الشرق والغرب وحتم عليها عدم عزلتها عن البحر المتوسط .وجعلها أكثر إتجاهاً إلى البحر منها إلى البر ، حيث الصحارى الداخلية (١) . فمصر الوحيدة ، التى يقترب عندها ، بل منها أطول وأهم ممرين داخلين هما المتوسط والأحمر (٢) كما أنها كلها فى الحقيقة برزخ من برازخ بمعنى إنها تتألف من مجموعة البرازخ الصغرى ، داخل إطار برزخى رئيسى أعظم ، فإلى جانب برزخ خليج السويس ، هناك دلتا النيل عن طريق القاهرة وفرع رشيد إلى القاهرة والإسكندرية ، ثم هناك برزخ البحر الأحمر (٣) فضلاً عن كونها البلد الوحيد ، الذى يلتقى فيه النيل بالمتوسط . ومصر بموقعها البؤرى المركزى على ناصبه العالم ، أصبحت متوسطة الدنيا(٤)،وهى بذلك أكبر دولة برزخ ودولة طريق وممر وعبور إلى العالم (٥) .

كما تزامن مجيء الفاطميين إلى مصر فى منتصف القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى مع بداية إستعادة العالم الإسلامى الهيمنة على البحار ، وكان الوجود الفاطمى يمثل تتمة لهذه المنظومة ، حيث أن سفن المسلمين وقوافلهم كانت تجوب كل البحار والبلدان (٦).كما سادت الأساطيل الاسلامية مياه البحار الشرقية (٧) و بسبب ظهور كيانات سياسية فى المشرق مثل السامانيين والغزنويين ذات طابع برجوازى ، أدت إلى حدوث تغيير فى موازين القوى لصالح دار الإسلام ، فسقطت الأسرة الحاكمة فى الصين وحلت

محلها أسرة جديدة أحتكرت النشاط التجارى ، وعمدت إلى التعاون مع القوى الإسلامية المجاورة لتسويق منتجاتها داخل العالم الإسلامى (٨) .

وفى الجبهة الأسيوية الشمالية توقفت إغارات الروس والبلغار وأمنت الطرق المؤدية إلى حوض نهر الفلجا ، وبسبب الخلاف الذى دب بين بيزنطة والفرنجة وإنشقاق المدن الإيطالية عليها للتخلص من سياستها التجارية الاحتكارية ، كان فتح مغاليق التجارة بين بيزنطة والعالم الإسلامى؛ فضلاً عما قام به الغزنويون من تطهير البحار الشرقية من متلصصة البحر (٩) ، كما تحول البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية بسبب تفاقم الصراع بين قوى العالم المسيحى ، فى الوقت الذى قامت فيه الدولة الفاطمية فى المغرب والخلافة الأموية فى الأندلس ، و بأنتقال الفاطميين إلى مصر وإستيلائهم على بلاد الشام ، قد سيطروا على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وظل الزيريون يدافعون عن النفوذ الفاطمى فى موسطة البحر المتوسط،وأدى ذلك إلى إسترداد المسلمين دور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب(١٠) .

وإتسعت ممتلكات الفاطميين بعد ضم الشام ، لتشمل إمبراطوريتهم مناطق عديدة ، إذ إستطاع الفاطميون أن يحققوا الحلم ، الذى جاءوا إلى مصر من أجله ، وهو وراثة الخلافة العباسية وحكم العالم الإسلامى واتخاذ مصر مركزاً لأمبراطورية كبرى ، لاسيما فى عهد الخليفة المستنصر ، الذى حكم فترة طويلة ٤٢٧ -٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م ، وعلى ذلك يعتبر عهده الحد الفاصل بين عصرين متمايزين، فخلاله أصبحت سيطرة الفاطميين تامة على بلاد الشام ، وقامت فى اليمن أسرة موالية للفاطميين هى أسرة الصليحين ، فضلاً عن المغرب وضم الحجاز، كما نجحوا فى دخول حاضرة العباسيين ، وكذلك إستطاع الخليفة المستنصران يحصد جهود الخلفاء السابقين .

لكن قدر لهذا الخليفة أن يشهد عصره أيضاً فقدان الكثير من ممتلكات الفاطميين ، منها بلاد المغرب ، التى كان قد آل حكمها إلى الزيريين بعد انتقال الفاطميين إلى مصر واستمرت تبعية المغرب للفاطميين حتى ولاية المعز بن باديس ، الذى خرج على الفاطميين عام ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م وبايع الخلفاء العباسيين (١١) .

أما صقلية التى ورثها الفاطميون بعد قضائهم على الأغالبة ، ظلت تابعة لهم بعد إنتقالهم إلى مصر ، وكانت أموالهم تحمل كل عام إلى مصر (١٢) ، لكن بسبب المنازعات ، التى حدثت داخل الجزيرة أستنجد أهلها بالنورمان ،الذين أنتهزوا الفرصة واستولوا عليها عام٤٨٤هـ/١٠٩١م (١٣).

وقد أدى فقدان الفاطميين للمغرب إلى زوال السيطرة الإسلامية عن البحر المتوسط (١٤) ، أما صقلية التى تعد معبرا للسفن الأتية من جنوب أوربا فكان لفقدانها بعيد الأثر على الفاطميين وبذلك تمياّت البلاد لفترة قادمة اتسمت بالضعف ، فقد معها الفاطميون بلاد الشام أيضاً بسبب مجىء الصليبين مما، أفقد الفاطميين السيطرة على شرقى البحر المتوسط .

ونستطيع من خلال العرض السابق أن نقف على حاجة الفاطميين الملحة للخشب طوال العصر الفاطمى ، ولما كان العالم الإسلامى يفتقر إلى إنتاج الخشب (١٥) ، فضلاً عن رداءة غالبية الخشب المحلى ،

الذى لم يمتاز بالصلابة المطلوبة ، لأنتاج السفن . لذا قامت الدولة الفاطمية باستيراد الأخشاب عالية الجودة، من بلدان أوروبا الجنوبية التى كانت أحد المصادر الهامة التى أمدت مصر بالأخشاب (١٦) ، ليس فقط مع الفاطميين أو حتى خلال العصر الإسلامى . لكن أيضاً كانت هناك علاقات إقتصادية تربط مصر بأيطاليا قبل الفتح الإسلامى . فكانت السفن تقلع من مصر محملة بالحبوب وفاخر الصناعات لتبادل على ذلك بالأخشاب (١٧) .

وارتباطاً بالتأثير على قوة الفاطميين فى بلاد الشام ورغبة بيزنطة فى السيطرة على البحر المتوسط ، وكذلك احتكار البيزنطيين لتجارة المدن الإيطالية ، وضعت الأمبراطورية البيزنطية العراقيل فى سبيل توريد الخشب إلى مصر . وهذا الدور الذى لعبته بيزنطة ، لم يبدأ مع الفاطميين ، بل هى سياسة تبنتها بيزنطة منذ قيام الدولة الإسلامية ، حتى أنها كانت تستخدم حظر الخشب عن المسلمين كورقة رابحة تستطيع من خلالها أن تؤثر على قوتهم الحربية .

واعتمدت بيزنطة خلال هذا الصراع على ما لديها من أخشاب وفيرة . وكل ما هو ضرورى لإنشاء الأساطيل حيث كانت تستطيع الحصول عليه بسهولة ، ففى الغرب صقلية وقلوريا وإيستريا ودلماشياً وكذا ساحل بيجوريا الشمالى : وفى الشرق أسيا الصغرى والقوقاز والقرم ، التى كانت تضم مصادر طبية لإنتاج الأخشاب (١٨) .

وفى المقابل كان من الصعب على المسلمين الحصول على الأخشاب ، بسبب فقر العالم الإسلامى لإنتاجه ، على الرغم من وجود غطاء غابى فى غالبيته ، فكان أما رديئا أو لم يستغل بشكل كاف أو بسبب الظروف السياسية . فلم يكن بوادى النيل الخشب اللازم للسفن والصوارى ، يضاف إلى هذا ، أن محصول بلاد الشام من خشب الصوارى ، الذى يوجد على الساحل الشرقى للبحر المتوسط وفى المناطق الشمالية كان ضئيلاً . صحيح أن شمال إفريقيه كان بها الخشب وكل ما يلزم لبناء السفن . حيث المناطق الواقعة إلى الغرب من تونس فقط الأمر الذى جعل استخدام العرب لتلك المواد صعبا عليهم (١٩) ، خاصة أن فتح بلاد المغرب قد استغرق فترة طويلة ، وحتى بعد الفتح ، لم يكن الوجود الإسلامى مستقراً فى غالب الأحيان ، فكان احتكار الأمويين للمواد الأولية لصناعة السفن خصوصاً فى مصر مشكلة لم يجد لها العرب حلاً أبداً (٢٠) .

ومن هنا اتضحت حقيقة الصراع بين العرب والبيزنطيين وخاصة بعد ضياع ممتلكاتهم فى بلاد الشام ومصر وإنشاء أول أسطول إسلامى فى خلافة عثمان بن عفان على يد والى الشام معاوية بن أبى سفيان وقيام هذا الأسطول بحملات بحرية ناجحة إلى جزر البحر المتوسط.ثم الانتصار البحرى للمسلمين فى معركة ذات الصوارى (٢١). ويرى البعض (٢٢) . ((إنه إذا صح الزعم أن ساحل الأناضول ، هو المكان الذى دارت فيه المعركة ، فلعل البيزنطيين ، قرروا القيام بتلك المعركة ليحولوا بين الخشب اللازم لصناعة السفن هناك وبين وقوعة فى قبضة المسلمين ، حيث يزدحم هذا الساحل بغابات السرو الكثيفة . وهو الشجر المستخدم فى صوارى السفن فهذا ينهض دليلاً على أهمية الخشب فى الصراع البحرى بين العرب وبيزنطة)).

ولذلك مارست بيزنطة ضغوطا إقتصادية على العالم الإسلامي ، بسبب حاجتة إلى الخشب كما لم تتعنت فى علاقتها التجارية مع بلاد الشام ومصر إلا فيما يتعلق بالخشب اللازم لبناء السفن (٢٣) . كذلك طالما لوحت بيزنطة بحظر الخشب عن العالم الإسلامي كرد فعل لسياسة الدولة الأموية ، فبعد قيام عبد الملك بن مروان بتعريب العملة (٢٤) ، أجاب الإمبراطور جستنيان الثانى على ذلك بأعلان الحرب. و يحتمل أنه فعل أكثر من ذلك . عندما قطع التجارة عن الأمويين من قبل قبرص ، التى كانت تربطها بمصر علاقات تجارية هامة ، لاسيما فى تجارة الخشب و نفس الشيء يقال عن رافنا ، التى كانت تصدر الخشب إلى مصر منذ زمن بعيد (٢٥) و حالت الإمبراطورية البيزنطية بعد ذلك ، وبداية من عام٩٦هـ/٧١٦ م من وصول التجار السوريين والمصريين إلى أسواق الغرب (٢٦) كما أدت السيادة البيزنطية بعد ذلك حتى اواخر القرن الثالث الهجرى–التاسع الميلادى إلى تغيير الوسطاء بين بلاد الشرق والغرب فى البحر المتوسط، فقضت على دور السوريين والمصريين فى نقل التجارة العالمية وساعدت على انتقال الوساطة إلى التجار الإيطاليين (٢٧) .

و استطاعت الإمبراطورية البيزنطية أيضاً من خلال سيطرتها على بعض الموانى الإيطالية أن تضع الرقابة عليها ، وتأتى البندقية فى مقدمة هذه الموانى ، التى ارتبطت مصالحها التجارية فيما وراء الإمبراطورية البيزنطية . وعلى الرغم من أن البندقية كانت تحافظ بصفة عامة على رابطة الولاء مع بيزنطة ، فإنها كانت تقوم بتصدير بعض السلع إلى الشواطىء الإسلامية وفى مقدمتها الخشب ، متحدية بذلك القيود البيزنطية المفروضة عليها . وعلى ذلك قام الإمبراطور ليو الخامس فى مطلع القرن الثالث الهجرى – التاسع الميلادى بتحذير رعاياه ، خاصة البنادقة من الاتجار مع بلاد الشام ومصر ، لكن البنادقة لم يذعنوا لهذا التحريم . وربما ذلك يرجع إلى أن المدن الإيطالية ، كانت تخضع بشكل عام للرقابة البيزنطية . بينما كانت البندقية تتمتع بحكم ذاتى تحت السيادة البيزنطية (٢٨) ، فضلاً عن ذلك أنهم أعتادوا على إقامة علاقات تجارية مع المسلمين ، وفى سبيل مصالحهم الاقتصادية ، ضربوا عرض الحائط بهذه المحاذير ، بدليل وجود تجار بنادقة فى مدينة الإسكندرية آنذاك و أنهم استطاعوا نقل رفات القديس مرقص من مدينة الاسكندرية المضطربة الأحوال . وذلك أما لأن الحظر رفع عنهم أو لأنه لم ينفذ بدقة (٢٩) .

ولعل نجاح الأغالبة خلال هذه الفترة فى السيطرة الكاملة على البحر المتوسط باستيلائهم على عدة جزر مثل كريت وصقلية و قوصرة ومالطة (٣٠) . كان له أثاراً هامة بالنسبة للمسلمين ، اذ أن سيطرتهم على هذه الجزر الهامة ، أدت إلى تحقيق أغراض دفاعية وصارت الشواطىء الإسلامية معها فى مأمن عن الغزو، وأتاحت الفرصة لهم فى توفير جميع ما يحتاجون إليه إلى حد ما فيما يتعلق بالمواد الأولية الهامة اللازمة لبناء السفن ، ففى صقلية كميات وفيرة من أخشاب السفن ، فضلاً عن الحديد (٣١) ، كما استطاع الأغالبه أن يستغلوا الأخشاب الموجودة فى غربى تونس (٣٢) .وكذلك كانت الإسكندرونة فى ذلك الوقت تعتبر ميناء اً هاماً لتصدير الأخشاب إلى مصر ، ومدينة بياس ، حيث مجمع الصنوبر ، الذى ينقل إلى مصر أيضاً (٣٣) ، بالإضافة إلى ما وجد فى كريت وعلى ذلك ، لم يشعر بناة السفن بالبحر المتوسط بالحاجة إلى المواد الأولية لصناعة السفن .

ويبدو أن نشاط الفاطميين فى البحر المتوسط قبل انتقالهم إلى مصر كان واضحا ، فأغار الأسطول الفاطمى على سردينية وكورسيكا وقلورية و أحرق الكثير من السفن ، كما قاموا بشن الغارات على الأراضى البيزنطية (٣٥)، ولم يرجع هذا النشاط فقط لرغبتهم فى السيطرة على البحر المتوسط ، لكنهم أيضا أرادوا أن يخضعوا تلك المناطق الغنية فى أنتاج الخشب لسلطانهم .

وبمجىء الفاطميين إلى مصر عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م ، استأنفت الدولة البيزنطية سياستها فى الحظر لتوريد الأخشاب للمسلمين ، فأصدر الأمبراطور حنا تزيمسكس عام ٣٦١ هـ / ٩٧١ م مرسوما حرم فيه على البنادقة نقل أخشاب السفن والحديد والسلاح إلى البلاد الإسلامية (٣٦) ردا على ما قام به الفاطميون أثناء وجودهم فى إفريقية خاصة أن انتقالهم الى مصر سوف يتطلب إعداد أسطولا لتحقيق مشروعهم فى وراثة حكم العباسيين ، ولا شك أن هذا الحظر . لم يصدر للبنادقة وحدهم ، إنما طبق على أقاليم الإمبراطورية . التى خضعت خضوعا فعليا لسلطات الأباطرة المباشرة ، ولكن تكليف البندقية بتنفيذ أوامر هذا الحظر ، قد جاء بسبب أن البنادقة كانوا يشكلون حجر الزاوية فى هذه التجارة ، كما كان أستيلاء الدولة البيزنطية على قبرص وطرسوس والساحل الشمالى لسوريا قد ساعدها على منع تصدير أخشابها إلى مصر (٣٧) .

كما شمل الحظر لدوق البندقية ، التهديد بحرق السفن المستخدمة فى هذه التجارة أينما وجدت ، هكذا قام دوق البندقية بتنفيذ هذا الأمر ، واستثنى من ذلك ألواح خشب الدردار أو الحور ، التى طولها خمسة أقدام وعرضها نصف القدم ، وكذلك الأدوات المنزلية الخشبية (٣٨) ،

على أن يعاقب كل مخالف بغرامة جسيمة أو يعدم إذا كان معسرا ، وطبق هذا الأجراء على ثلاث سفن كانت على أهبه الإبحار ، أثنتان منهما كانت متجهتين إلى المهدية والثالثة إلى طرابلس (٣٩) ، ولا يستنتج من ذلك أن المغرب كان السوق الرئيسى للخشب والأسلحة ، لأن الإمبراطور البيزنطى لم يكن ليهتم كثيرا بالقضاء على هذه التجارة ، لو لم تكن البندقية تزود بها المسلمين فى مصر و سوريا (٤٠) . باعتبار أن القوة السياسية الموجودة فى كلتيهما تستطيع أن تتحكم فى شرقى البحر المتوسط ، وتؤثر على البيزنطيين ،وهذا ليس معناه أن البندقية فقط هى التى كانت تصدر الخشب إلى مصر ، لكن هناك تجارا من أمالفى وجنوة كانوا مشتركين فى هذه التجارة (٤١) .

وحتى بعد ترك الفاطميين المغرب إلى مصر ، ظل الزيريون يحكمون المغرب بأسم الفاطميين ، كما أن الأسطول البحرى ، الذى دخل به جوهر ميناء الإسكندرية ، لم يكن إلا الأسطول الذى أعد فى إفريقية قبلا، فمعنى ذلك أن مجىء هذه السفن إلى المهدية أو طرابلس تفيد بأنها سوف تزود الأسطول الفاطمى فى مصر ، كما أن ذلك محاولة من البيزنطيين لشل قوة الفاطميين البحرية ، حتى لا تمتد أيديهم إلى بلاد الشام بعد إنتقالهم إلى مصر ، خاصة أن الأباطرة العسكريين من الأسرة الباسيلية قد استطاعوا أن يصولوا ويجولوا فى إرجاء بلاد الشام مستفيدين من حالة الضعف التى وصل إليها الحمدانيون (٤٢) . و أن انتقال الفاطميين إلى مصر من شأنه أن يربط القوة البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط بالمحور البحرى فى و سطه (٤٣) ، وعلى ذلك حملت سلطات البندقية على إلغاء كل صلة تجارية مع المسلمين إلغاء مطلقا (٤٤) .

لكن إلى أى حد قد جرى تنفيذ هذا الحظر من قبل المدن الإيطالية أو البندقية على وجه الخصوص، معلوما أن تجار البندقية لم يذعنوا لمرسوم الحظر السابق مع الإمبراطور ليو الخامس مما أدى إلى التضييق عليهم فى التعامل مع المسلمين فى مصر وسوريا . و ربما أدى ذلك إلى تفجر ثورة عام٢٠٦- ٢٠٨هـ/٨٢١- ٨٢٣ م لأن فرض مثل هذه القيود على التجارة مع المسلمين ، كان بمثابة القضاء على الأسواق التجارية الهامة فى الموانى الإسلامية ، التى تمثل رخاءاً للموانى الإيطالية ، مقابل ما يعود عليهم من كسب تجارى نتيجة لارتباطهم بالإمبراطورية البيزنطية (٤٥) . ومع تكرار الحظر مع الإمبراطور حنا تزيمسكس. فر بما خرجت أساطيل الموانى الإيطالية إلى القسطنطينية(٤٦) كرد فعل مماثل ، وأن كانت الدبلوماسية على الجانبين قد لعبت دوراً ، فالبنادقة ، الذين لم ينفذوا هذا الحظر وحاولوا إرضاء بيزنطة ، أرسلوا إلى القسطنطينية سفراءاً للحصول على امتيازات تؤكد علاقتهم بالإمبراطورية ، فى الوقت نفسة تم إرسال السفراء أيضاً إلى بلاطات القاهرة وحلب ودمشق ، للحصول على إمتيازات تضمن لهم من جديد حسن إستقبال المسلمين لهم (٤٧) .

أما عن موقف الفاطميين من هذا الحظر ، فيتضح كما يذكر المؤرخون (٤٨) ، فى قيام المعز بأعداد أسطول حربى قوامه ستمائة قطعة ، أستطاع دخول دمشق وحصار انطاكية عام ٣٦٣ هـ/٩٧٣م (٤٩) ، وكان هذا الأسطول ضخماً،بحيث وصفت إحدى سفنه بأنها تبلغ ٢٧٥قدماً طولاًو ١١٠قدماً عرضاً (٥٠) ، وإذا كان هذا يدل على توفر الخشب رغم المحاذير البيزنطية ، إلا أنه لايمكن أن يعد فى وقت قصير ، لأن المعز جاء إلى مصر ، بعد فتحها بأربع سنوات فى عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٢م و إذا كان قدتم إعداده ، فلعل الفاطميين إعتمدوا على أخشاب تونس ،التى ظلت تابعة لهم . لكن الأقرب إلى الصحة أن الأسطول الذى دخل بلاد الشام فى خلافة المعز ، ٣٦٢ - ٣٦٥ هـ / ٩٧٢ - ٩٧٥ م شكل الأسطول المغربى ، الذى أتى به جوهر جزءاً كبيرا منه ، لاسيما أن المغرب ظل يرسل المراكب إلى مصر ليزود الأسطول لفتح بلاد الشام (٥١) وعلى ذلك يكون الأسطول السابق الذكر يرجع إلى خلافة العزيز ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ / ٩٧٨ - ٩٩٦م ، لأن المؤرخين (٥٢) ، أنفسهم يختلفون فى نسبته إلى عصر المعز أو العزيز ولذلك كان المعز حتى أواخر ايامة حريصاً على الخشب ولما كانت العلاقات بين مصر وبيزنطة غير مستقرة خلال هذه الفترة بسبب نشاط الفاطميين فى بلاد الشام فتشير المصادر (٥٣) إلى مجيء رسول من قبل امبراطور الروم إلى بلاط المعز ، ولكنها لم توضح بسبب هذه الزيارة غير أن ماورد بصددها يدلل على رغبة الروم فى تثبيط همة المعز لكن بعد هذه الزيارة انفذ المعز الى عاملة على الحجاز رسالة ذكر فيها ,, من لك من التجار فكاتبه ؛ أكتب الى من تراه منهم بأن يكتب الى عدن بحمل ما يقدر عليه من خشب الأبنوس الحسن التلميع التام الطويل الغليظ مما لاغاية وراءه ،، ووصل هذا الخشب بعد شهرين (٥٤) وتاكيد المعز على نوعية هذا الخشب ربما اراد ان يستعيض به عن خشب الصوارى الصالح لبناء السفن .

وردا على ما أحرزه الفاطميون فى بلاد الشام من انتصارات أستمر الصراع بينهم وبين البيزنطيين ، بأغارات من قبل بيزنطة فى عهد حنا تزيمسكس ومن بعده الإمبراطور باسيل الثانى ، الذى عاصر الخليفة العزيز ، الذى كان عليه أن يتأهب لأعداد أسطول لإرساله إلى بلاد الشام ، لكن هذا الأسطول أحرق

عام ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م . واتهم بإحراقه جماعة من الروم والنصارى المقيمين بجوار دار الصناعة بالمقس (٥٥) ، هؤلاء . الذين كانوا يعملون لصالح بيزنطة ، ولهذا قامت الدولة الفاطمية بالقبض على عدد كبير منهم وأعدمتهم (٥٦) .

وأمام حاجة الدولة الفاطمية الملحة لبناء أسطول جديد،إتخذت بعض الإجراءات ، التى من شأنها أن تساعدها على ذلك فى أقصر وقت ، لكن العقبة ، التى واجهت الفاطميون هى قلة الخشب وضياع ما أتلفه المتآمرون على يد العامة ، الذين هاجموا بيوت الروم ،فقامت الدولة بالتضييق على الرعية ، الذين إشتركوا فى إحداث النهب و عندما فشلت فى أتباع أسلوب التهديد والقتل ، وبعد إلقاء الناس للخشب فى الأزقة والشوارع خوفاً من أن يعرفوا به ؛ لأنه حبس كثير منهم ممن أحضروا خشباً . فبدأت فى أتباع سياسة هادئة ، حتى يطمئن الناس ، فنادت بضرورة عودة ما لديهم مما نهب كما طلب الخشب من كل مكان ، ولم يدع خشباً عند أحد علم به إلا أخذ منه (٥٧) ، حتى قلعت صوار كبار كانت مسقفة على دار الضرب بمصر بجانب دار الشرطة وفى البيمارستان ، الذى كان فى سوق الحمام ، ونشروه ، لأعداد أسطول آخر (٥٨) . كما أصدر الوزير عيسى بن نسطورس امره بقطع الأخشاب من مختلف الجهات(٥٩) ، وبذلك إستطاعت الدولة الفاطمية فى غضون ثلاثة شهور أن تملك أسطولا قويا هزم أسطول الإمبراطور باسيل الثانى فى بداية خلافة الحاكم بأمر الله ، عام ٣٨٨هـ / ٩٩٨م (٦٠) ، ونتج عن ذلك عقد هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات عام ٣٩١هـ / ١٠٠١م (٦١) .

وتسبب قيام الخليفة الحاكم بفرض الشروط العمرية على غير المسلمين ، فى اصدار الإمبراطور باسيل الثانى قرارا بتحريم الأتجار مع الخلافة الفاطمية فى مصر ، وتم تنفيذ هذا التحريم من عام ٤٠٥ إلى ٤١٨هـ / ١٠١٥ - ١٠٢٧ م (٦٢)، وبعد الإجراءات ، التى أتخذها ست الملك بعد وفاة أخيها الحاكم وتجديد الهدنة مع البيزنطيين فى خلافة الظاهر ٤١١-٤٢٧هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥ م عادت العلاقات السلمية بين البلدين حتى نهاية العصر الفاطمى (٦٣) .

ومع عصر المستنصر الطويل تغيرت الأوضاع السياسية فى أوله عن آخره ، وتغير معها موقف بيزنطة، فلم نعد نسمع عن سياسة الحظر والتحريم ، التى مارستها مع المدن الإيطالية فى توريد الخشب إلى مصر ، وذلك يرجع إلى عدة أسباب : منها فقدان الفاطميين لممتلكاتهم فى المغرب وصقلية. كما أنه قد تزامن ذلك مع إنتهاء الرقابة التجارية البيزنطية على التجار الأجانب داخل الإمبراطورية . مما أدى إلى نمو سلطان البندقية والموانى الإيطالية ، و جعل علاقتها بمصر حرة (٦٤) .

ولعل أفول نجم الفاطميين فى البحر المتوسط بعد فقدان المغرب وصقلية ، الذى أشرنا إليه سلفا ، قد أوجب عليهم البحث عن مجال آخر يؤكدون فيه قوتهم ، ولذلك وجه الفاطميون جهودهم نحو الشرق ، لاسيما تجاه اليمن والهند ، لنشر الدعوة الفاطمية وإيجاد نفوذ سياسى لهم بقصد السيطرة على البحر الأحمر ، خاصة المنفذ الجنوبى المؤدى للهند (٦٥) . وعلى الرغم من سيطرة الفاطميين على الساحل الشرقى للبحر الأحمر من خلال سيطرتهم على الحجاز ؛ فإنه لم يكن هناك أهمية حيوية له (٦٦) لأن موانى الشاطئ الغربى كانت كافية لأن تشرف على التجارة الشرقية (٦٧) . وبذلك حل البحر الأحمر محل الخليج الفارسى

فى طريق التجارة الرئيسية من الهند والبحر المتوسط إذ كان من نتائج نشر الدعـــوة الفاطميـــة فى اليمـــن على يد الصليحيين . أن انتشرت على أيديهم فى البحرين وعمان ، و أدى ذلك إلى إنتعاش تجارة الكـــارم . فجهود الفاطميين وأتساع ممتلكاتهم فى جهة الشرق ، ساعد على نمو التجارة الخارجية حيث أشرفت بذلك على البحر الأحمر والمحيط الهندى مما جعلها تسيطر أيضاً على تجارة أفريقية بشكل آمن فى الطريق بين عيذاب حتى أسوان (٦٨) وبذلك انتعشت التجارة مع الشرق مع استمرار أهمية البحر المتوسط فى تجارة العبـــور . كما أن مجيء الحملات الصليبية إلى الشرق و نجاح الصليبين فى الاستيلاء علـــى بيـــت المقـــدس والرهـــا وطرابلس وبيروت وصيدا و عكا فى أواخر القرن ٥ هـ / ١١ م (٦٩) حمل الفاطميين تبعـــة إســـتعادتهم ، ولذلك خرجت أساطيل الفاطميين منذ خلافة الآمر ٤٩٥-٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٣٠ م لاســـتعادة مدن الساحل الشامى فقام الأفضل بن بدر الجمالى بأرسال أسطول لمحاصرة عسقلان وطرابلس وصور(٧٠)، أما المأمون البطائحى فقد أرسل إلى يافا عام ٥١٦ هـ / ١١٥٦ م أسطولاً تكون من أربعين شينيـــا (٧١)، كما أرسل العادل بـــن الســـلار المراكـــب الحربيـــة إلى يافـــا وعكـــا وصيـــدا وبـــيروت وطرابلـــس عام٥٤٦ هـــ/١١٥٦م وكان جملة ما صرفه هذا الاسطول ثلاثمائه ألف دينار (٧٢) ، وأرسل أيضاً الوزير الصالح طلائع بن رزيك أسطولاً إلى ميناء صور عام ٥٥٠ هـ /١١٥٥م.

ومع تبدل موقف مصر الفاطمية من القوة إلى الضعف ، كان لابد أن تتأثر تجارة الخشب بـــالأحوال السياسية السابقة ، لكن ظلت مصر فى حاجة ملحة إلى الخشب لبناء السفن التجارية والحربية ويبـــين لنـــا المقريزى ، (٧٣) هذا الأمر فى معرض الحديث عن نهب الناس لدار الوزارة فى نظر رضوان بـــن ولخشـــى عام ٥٣١ - ٥٣٣ هـ/١١٣٧ - ١١٣٩ م ((أحرقت أخشاب تعب الملوك فى تحصيلها)) وهذه دلالـــة على مدى المجهودات ، التى بذلت من جانب الخلفاء أو الوزراء ، الذين كانوا مسئولين آنـــذاك للحصـــول على الخشب ومن هنا كان حرص الفاطميين على أقامة علاقات دبلوماسية مـــع المـــوانى والجـــزر المنتجـــة له فأقاموا علاقات ودية مع الحكام الجدد لصقلية ، كما أنهم بذلوا قصارى جـــهدهم فى جـــذب التجـــار الإيطاليين إلى الإسكندرية (٧٤) . من أجل تأمين تجارتهم للحصول على الخشب ، ويبدو أنه لم يكن هنـــاك قاعدة ثابتة للرسوم الجمركية ، حيث أن الحكومة الفاطمية أتبعت نظام التفضيل ، واستخدمت هذه الرسوم كسلاحاً فى يدها ووسيلة من وسائل الضغط ، لذا أهتم هؤلاء التجار بالحصول على تخفيـــض الضرائـــب التى يدفعونها عما ينقلونه من سلع (٧٥) .

فعقدت إتفاقية بين الدولة الفاطميـــة وجزيـــرة صقليـــة ، حيـــث ســـعى الملـــك روجـــر الثـــانى عام ٥٣١هـ/١١٣٧ م للحصول على تخفيض الرسوم التى يدفعها تجار مدينة سالرنو فى الإسكندرية بالفئـــة المحددة . ومن الواضح أن الخليفة الحافظ ٥٢٤ -٥٤٤هـ / ١١٤٩ - ١١٥٤ م رحب بهـــذا الأمـــر ، ونصت هذه الإتفاقية على منح تخفيضاً لتجار صقلية (٧٦) ، ومما يؤيد أيضاً أن، الفاطميين كانوا حريصـــين فى أخريات أيامهم على إستمرار تلك العلاقات الطيبة مع أهل صقلية ، أنه على الرغم من حدوث بعـــض الأغارات من قبل أسطول صقلية على السواحل المصرية ، بعد هذه الإتفاقية حـــتى نهبـــت بعـــض المـــدن

وحوصرت الإسكندرية بضعة أيام . فإن هذا لم يؤثر على طبيعة العلاقات بين البلدين ، فسرعان ما عادت الحركة التجارية بينهما إلى نشاطها السلمى المعتاد (٧٧) . وإستمرت كذلك ، حتى أرسل الخليفة الحافظ فى عام ٥٣٧هـ/١١٤٢م رسولاً إلى ملك صقلية لتوطيد العلاقات بين البلدين .

وبنفس الروح السلمية ربطت العلاقات بين مصر الفاطمية وبيزا ، حيث شهدت العلاقات الدبلوماسية بذلك ، فقد أستقبل الخليفة الظافر عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م فى القصر الفاطمى سفيراً بيزيا بقصد تسوية بعض الخلافات ، التى وقعت فى العام السابق ، وتوقفت حركة التجارة بسببها (٧٨) ، صحيح أن الخليفة ثأر لرعاياه بقتل التجار البيزيين المقيمين فى مصر أو المارين بها ، و طالبت الحكومة الفاطمية بمعاقبة المذنبين قبل التصريح بإستئناف الحركة التجارية ، إلا أنها سرعان ما التزمت فى حالة تكرار مثل هذا العدوان، بألا تتخذ إجراءات فورية ضد التجار وأن تعطى مهلة سنة واحدة للسلطات فى بيزا لتقدم التعويض الكافى ، ونفس الشيء بالنسبة للسفير البيزى ، الذى كان يتفاوض فى البداية فى أنفه ، لكنه أضطر إلى التنازل وتقديم الترضية المطلوبة للسلطات الفاطمية ، والتعهد بألا يقدم بلده أية مساعدة للصليبيين (٧٩) .

وبذلك أسفرت هذه السفارة عن بعض التعهدات ، التى كشفت عن الوجه الحقيقى لهذه الروح السلمية ، وأتاحت الحماية للتجار والحجاج . وعلى ذلك قررت أن يستعيد التجار البيزيون فى الحال فندقهم فى الإسكندرية بعد سداد الرسوم والضرائب المقررة ، وأن يكون لهم الحق فى بيع سلعهم فى جميع أنحاء الأقليم ، إذ لم يجدوا من يشتريها فى الإسكندرية (٨٠) ، وقد تأكدت روح التفاهم بعد رحيل هذه السفارة ، ويتضح ذلك من خلال أحد الخطابات ، أنه حتى ذلك الوقت كان الروم والمسلمين يدفعون أكثر مما يدفعه البيزيون ، وأنهم يعيشون فى مصر فى جو من السلام والألفة فى ممارسة تجارة مربحة (٨١) ، وكذلك حصل تجار مدينة جنوة على تعهد من الفاطميين الأواخر ببسط حمايتهم على مواطنى هذه المدينة الموجودين فى أنحاء مصر (٨٢) .

وفى إطار العلاقات السلمية يظهر حرص الفاطميين على الحصول على الخشب ويتبين لنا أن الفاطميين فى العصر الفاطمى الأول ، أهتموا بالعلاقة مع المدن الإيطالية من منطلق القوة ، لإقامة أسطول حربى يحقق أهدافهم التوسعية ،وفى العصر الفاطمى الثانى ، أهتموا أيضاً بهذه العلاقة ، التى غلب عليها الطابع الدبلوماسى ، وفى الحالتين أحتاج الفاطميون للخشب بشكل ملح .

وعلى الصعيد الداخلى فعلى الرغم من عدم قدرة الخشب المحلى على سد حاجة الدولة ، فإنه على الأقل كان يغطى جزءاً من احتياجاتها ، ففى داخل مصر ، حيث يوجد الخشب بالوجه القبلى ، خاصة فى البهنساوية والأشمونين والأسيوطية والأخميمية ، وإذا كان غالبية الخشب المحلى لا يصلح لصناعة السفن ، لكن كان منه ما يقيم العود بمائة دينار (٨٣) ، لذلك إحتكرته الدولة،وحرصت على الإهتمام به ، واتخذت من الأجراءات التى تكفل حمايته ، من خلال الأشراف والرقابة الشديدة والدقيقة سواء فى مناطق إنتاجه أو خلال نقلة وبيعة إلى التجار .

وتمثلت هذه الإجراءات فى وجود الحراس ، الذين يقومون بحماية الأشجار وحراستها وعدم قطع شيئاً منها إلا عندما تدعو الحاجة ، ويدفع نظير ما يقطع فى هذه النواحى خراجاً ، لاسيما أخشاب السنط المستخدمة فى العمائر ، ولا يسمح إلا بتقطيع الأطراف لإستخدامها فى الوقود ومما لا يصلح لعمل المراكب ثم القيام ببيع ما تبقى منها عن حاجة الدولة والقصر لأهالى المناطق المجاورة كل حمل بأربعة دنانير كما يباع للتجار، الذين يأتون من كل مكان لشراء أخشاب تصلح لأغراض أخرى غير الوقود ، فيتم تسجيل ما يباع على أيديهم ، حتى يتم مقارنتها بالرسالة الواردة إلى ساحل السنط بمدينة الفسطاط ، المخصص لتحصيل الضريبة الخاصة بالخشب فقط ، حيث يدفع التجار رسوماً على ما ابتاعوه أو يحملوه من خشب للموظفين التابعين للدولة (٨٤) ، وبذلك لم تقم الدولة باحتكار ملكية الخشب فقط بل إحتكرت بيعه وتسويقه الداخلى .

ويقوم هؤلاء الموظفون بتسليم ما يرد إليهم أيضاً من خشب برسم دار الصناعة و ما هو مخصص للمطابخ السلطانية وبذلك كان يتم تصنيف وتوظيف ما نتج من خشب داخل مصر حسب أهميته الأقتصادية . ويذكر المقريزى (٨٥) : ((أنه قد وضع الحظر على خشب السنط ،والذى لم يكن مسموحاً بأن يتصرف فيه إلا الديوان)) وبذلك قد وصل التشدد أقصاه وأن إحتكار أشجار السنط كان كاملاً ، وبذلك ربما لملائمته لصناعة المراكب ويضيف ((ومتى وجد منه مع أحد شيء إشتراه من غير الديوان نكل به وأستهلك)) لأن الديوان كما اسلفنا كان يبيع جزءاً منه لتشييد العمائر لأهالى المناطق المجاورة .

وعلى ذلك كان حرص الفاطميين على غرس الأشجار وحمايتها ، خاصة فى البهنسا ، حيث قامت الدولة بغرس أشجار الحراج تحت أشراف إدارة خاصة به ، تتصل ببيت المال،ووصل ما غرس منها فى البهنسا وحدها ثلاثة عشر ألف فدان (٨٦). كما إشتهرت بلدة انصنا بخشب ثمين أطلق على شجرته أسم ((البنج)) . منه تنشر ألواح الخشب (٨٧) ؛ بالإضافة إلى ذلك كانت توجد مناطق كثيرة مغروسة بالأشجار ، منها تلك البساتين الواسعة التى ذكرها المؤرخون (٨٨) ، فى ضواحى الجيزة والفسطاط و قليوب و غيرها ، مما أنشأه الخلفاء والوزراء منها بساتين الجيوشية وبستان البعل ، حيث عمل لهما الأفضل ابن بدر الجمالى أثناء وزارته ٤٨٧-٥١٥ هـ / ١٠٩٤- ١١٢٢م سوراً مثل سور القاهرة ، وقيل أن عدد الأشجار بداخله كانت كثيرة (٨٩) . ووضعت أيضاً الضوابط لقطع هذه الأشجار . فعلى الرغم من بعدها عن أيدى العامة.ووضعها تحت الأشراف المباشر للدولة.فانه فى أيام الخليفة الحافظ٥٢٤-٥٤٤هـ/ ١١٣٠ - ١١٤٩م أمر بألا تقطع شجرة ، إلا إذا كانت فى وسط البستان ، الذى كان يحوى أشجاراً من السنط والجميز والآثل،فضلاً عن ذلك.فمن الملاحظ أن أغلب قرى مصر كانت محاطة بأشجار النخيل(٩٠)

وهذا الأهتمام بالخشب المحلى بهذه الكيفية السالفة الذكر ، لم يكن قاصراً على العصر الفاطمى ، لأن إفتقار مصر فى إنتاجه من حيث الجودة وحاجتها الملحة إليه إرتبطت بكل من حكم مصر ، لكنها إزدادت مع الفاطميين بقدر أحلامهم التوسعية وإستقلالهم وتمشياً مع تحديات ذلك العصر التى إزدادت ، أيضاً بسبب الخوف من قوة مصر أنئذ .فمثلاً كانت الدولة الطولونية ، تشرف على قطع الخشب المحلى ويسجل ما يقطع منه فى الديوان ، ومن الملاحظ أيضاً أن مدينة الفسطاط كانت غاصة بحوانيت

الخشابين،الذين أتسعت أحوالهم،خلال هذه الفترة من كثرة المستخرج من الخشب(٩١) كما حملت بعض العائلات أسم ((الخشاب)) (٩٢) مما يدل على كثرة المشتغلين بهذه التجارة من المصريين وحرية الحصول عليه ، فضلاً عن حرية الأتجار فيه آنذاك ، إلى الحد الذى سمح بوجود هذه الحوانيت بكثرة ، بينما لا نسمع عن وجود مثلها فى العصر الفاطمى ، كما استطاع المصريون خلال العصر الأخشيدى أن يتاجروا فى الخشب فتذكر أوراق البردى العربية (٩٣) أحد الخطابات التى تشير إلى وصول الخشب الخاص بأحد التجار من الأقصر إلى قوص .(٩٤) لكن مع الفاطميين زادت قبضة الدولة على المستخرج منه، لأنه على ما يبدو أن الدولة الفاطمية تعتبر أول من إحتكرت الخشب المحلى فى مصر خلال الحقبة الإسلامية .

وإذا كان غالبية الخشب المحلى لا يصلح لإنتاج السفن ، فقد إستخدمته الدولة فى صناعة المراكب و الزوارق. التى تستخدم فى نقل السلع ، عبر نهر النيل ، فضلاً عن ذلك فكان يستخدم فى صناعة السواقى وآلات رفع الماء وأدوات الزراعة والأنوال والمغازل (٩٥) .

أما عن الخشب الذى يتم استيراده من المدن الإيطالية ، ففى إطار تلك العلاقات السلمية السابقة . حرص الفاطميون على تأكيد هذا الإحتكار وحتى ما عقد من أتفاقيات ، يبين إستثناء لبعض السلع الهامة فى عدم خروجها من الميناء إلى الأقاليم وتسليمها لموظفى الجمارك المصريين . الذين يتعين عليهم شرائه من السوق ومنها الخشب (٩٦) ، والذى يقوم بشرائه متولى المتجر التابع للدولة . بعد دفع الرسوم المقرره على الأخشاب الواردة على إختلاف أصنافها ، حيث كان يجبى منها العشر (٩٧). وهذا يبين تخفيض الرسوم المقررة على التجار الأجانب لتشجيعهم على المجىء إلى مصر للحصول على أنواع الخشب الجيد فقد ذكر المقريزى (٩٨) : ((أن رسوم الخشب الطويل ستمائة وستة وسبعون ديناراً)) مع ملاحظة أن هذه الرسوم كان مدرجاً بها ضريبة الملح أيضاً .

ومن الأمور الأخرى المؤكدة لهذا الأحتكار . أن المتجر السابق الذكر الذى كان مخصصاً لخزن الغلال. قد تحول إلى متجر يحتكر بعض السلع وفى مقدمتها الخشب ، ومهما قيل فى شأن إقناع الخليفة المستنصر من قبل البازورى ، من أن المتجر،الذى يقام للغلة فيه مضرة على المسلمين إذا انحط السعر . فلا يمكن بيعها فتتلف ، وأن أقامة متجراً للخشب وغيره لا كلفة فيه على الناس،فضلاً عن أن فائدته أضعاف فائدة الغلة (٩٩) لكن يبقى أمر آخر أكثر أهمية ، وهو أن الخشب كان يعتبر سلعة إستراتيجية لها أبعاد سياسية وإقتصادية تفوق ما يمكن أن تحصل عليه الدولة من فائدة مادية قريبة ، وعلى ذلك نجد أن إحتكاره أستمر وظل فى أيدى الدولة وأن تغير المهيمنين عليها ، بحكم انتقال السلطة إلى الوزراء بعد وصول بدر الجمالى إلى الوزارة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م ، وما أعقب ذلك إلى أخر عصر الدولة من سيطرة الوزراء العظام وحسبنا على ذلك ما وجد فى مخازن الأفضل وتحت يد عمالة الشىء الكثير ومنه الخشب (١٠٠) ، وما وجد أيضاً فى دار الوزير رضوان بن ولخشى من أخشاب (١٠١) .

وإرتبط بإحتكار الخشب قيام الترسانات البحرية لأنشاء الأساطيل ، وكذلك إنتعاش المدن الساحلية على البحر المتوسط والأحمر ، فقد أهتم الفاطميون بإنشاء دور صناعة السفن فى القاهرة ، حيث المقس على ساحل النيل منذ خلافة المعز (١٠٢) إلى جانب جزيرة الروضة ، فضلاً عن الإسكندرية ودمياط ،

التي كانت تجهز بها الأساطيل ومراكب الشواني والشلنديات والمسطحات (١٠٣) ، وكذلك الصالحية ، التي كان يصنع بها سفن كثيرة حمولة كل منها مائتي خروار (١٠٤) ، هذا إلى جانب السواحل الشامية التابعة للفاطميين والتي أنشأ بها دور لصناعة السفن الحربية أو التجارية مثل عسقلان وعكا وصور (١٠٥).

وقد استفاد الفاطميون من خبرة المصريين السابقة في صناعة السفن ، حيث أن مصر منذ الفتح الاسلامي أسهمت بدور كبير في إنشاء الأساطيل الإسلامية بإعتبارها كانت مركزاً لصناعة السفن اللازمة للخلافة ، ولما كانت هذه الصناعة (١٠٦) في مصر فقط ، أمر معاوية بن أبي سفيان بأنشاء دار للصناعة في مدينة عكا ، (١٠٧) كما أمر عبد الملك بن مروان واليه على مصر بأتخاذ دار صناعة في تونس (١٠٨) وظل دورها واضحاً في الفترة السابقة على الفاطميين في إعتماد الطولونيين ومن بعدهم الأخشيديين على إقامة الأساطيل في الثغور المصرية (١٠٩) .

ونظراً للنشاط التجاري أيام الفاطميين ، ووجود علاقات تجارية سواء مع بيزنطة أو المدن الإيطالية أو غيرها،وبسبب هيمنة الفاطميين على البحر الأحمر وتجارة الهند ، كان لابد أن يكون هناك أسطولاً تجارياً ، فتذكر أن المصادر (١١٠) ،أن الخلفاء كانوا يملكون اساطيلاً تجارية ومنهم الخليفة الظاهر ٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢٠ - ١٠٣٥ م الذي كانت تخرج المراكب بأسم الحضرة في الاسكندرية تنتقل بها إلى المغرب ، وأن الخليفة المستنصر كان يملك أسطولاً تجارياً كبيراً فمن بين ألف سفينة راسية في تنيس يملكها التجار،كان منها عدد كبير يملكة الخليفة (١١١) . كذلك كان يملك إحدى وعشرين سفينة طول كل منها خمسين ذراعاً وعرضها عشرين ذراعاً (١١٢) . فضلاً عما ملكة الفاطميون أيضاً من أسطول صغير يقوم لحراسة ميناء عيذاب ، حيث تأتي تجارة الكارم ، وكان يتكون من خمسة مراكب ، ثم صارت ثلاثة ، وكان والي قوص يقوم بالأشراف على هذا الأسطول (١١٣) .

كما كان هناك إرتباط بين الأزدهار ، الذي أتسمت به التجارة الخارجية سواء مع أوروبا أو مع الهند وقيام مصر بدور الوسيط التجاري عبر أراضيها من ناحية وإنتعاش التجارة الداخلية من ناحية أخرى وبين ضرورة إنشاء أسطول نهري في دار الصناعة التي بنيت في الفسطاط لصناعة المراكب النيلية والشواني (١١٤) . وقد إستخدم هذا الأسطول في نقل السلع المجلوبة من الهند ، خاصة التوابل والعطور و البخور (١١٥) . عن طريق النيل حتى تصل إلى الإسكندرية التي كانت محط إستقبال السلع الواردة إليها أيضاً من أوروبا والتي تأخذ رحلتها في نهر النيل حتى تتوجه إلى بلاد الهند. وقد سهل إنتقال هذه السلع من النيل إلى الإسكندرية . ذلك الخليج الذي يربط بينهما والذي ظهر في عهد الحاكم بأمر الله ٤٠٤هـ / ١٠١٣م (١١٦) ، فضلاً عن ذلك إستخدم هذا الأسطول في نقل غلات الدولة المختلفة سواء الحبوب ، التي تجبى عيناً من الوجه القبلي ، وتوجة إلى دار الاهراء بالقاهرة ، أو الخشب الذي يتم نقله إلى ساحل السنط بالفسطاط ، وكان من الطبيعي أن يمتلك الخليفة عدداً من هذه المراكب النيلية ومنها خمسين عشارياً (١١٧) ، ولعلها كانت تستخدم في حمل هذه الغلات أو كانت تشارك في الأحتفالات المرتبطة بفتح الخليج . (١١٨) .

ولم يقف الأمر عند إنتاج الدولة للسفن الحربية أو التجارية ، التى تحقق أغراضها ، لكنها كانت تقوم أيضاً بإنتاج المراكب وبيعها للتجار . نظراً لإنتعاش التجارة آنذاك حتى أن عدد السفن أو المراكب التى أحصاها جواتين من خلال أوراق الجنيزة (١١٩) ، تلك التى جابت البحر المتوسط أو النيل خلال القرن ٥ هـ – ١١ م وصلت إلى مائة وثمانية وأربعين مركباً ، كذلك أن لم يكن امتلاكها وقفاً على التجار القائمين بهذا الأمر بل كان بين المالكين أميرات البيت الفاطمى والوزراء والقواد العسكريين وحتى القضاة ، فكانت الحاجة الملحة للحماية العسكرية لكل ما يخص السفن ، ربما تفسر سبب سيطرة هؤلاء على هذه التجارة المربحه ، لأنهم كانوا قادرين على توفير الحماية لها (١٢٠) .

وعلى ذلك نشطت هذه الصناعة بشكل كبير حتى تتوائم مع متطلبات العاملين بالتجارة ، حتى أن مدينة الفسطاط كانت غاصة بالمراكب الراسية (١٢١) وكذا مدينة تنيس (١٢٢) ، وكانت دور الصناعة تنتج نوعاً من المراكب يطلق عليها ((أرباع الكيل)) تصنع من الخشب المحلى لاسيما من أشجار السنط ، فإذا وصلت هذه المراكب إلى ساحل السنط يقوم ثمنها وينادى عليها ، فمهما بلغت من الثمن ، طولب صاحبها بحق الربع ، ضريبة من القيمة عما أخذه من خشب السنط (١٢٣) . ونلمح من ذلك أن مثل هذه المراكب ، كانت تخضع للمزايدة ، كما كانت الضريبة المقررة عند بيعها فيها أجحاف لمن يشترى كتعويض عن الخشب المستخدم فيها ، وأنه يدفع ثمنها مع الضريبة ، و يدفع ثمن الخشب مرتين . وبذلك كانت الدولة الفاطمية تستغل صناعة السفن بإحتكار الخشب ، مع بناء السفن لحسابها وبيعها للتجار و فرض الضرائب الباهظة عليها (١٢٤) .

ومن هنا أيضاً كان لابد أن تنشط الموانى الساحلية . بسبب إزدهار التجارة والإهتمام ببناء السفن وتعتبر الإسكندرية من أهم الموانى ، لإرتباطها بتجارة غرب أوروبا ومجيء تجار المدن الإيطالية إليها و علاقة ذلك بتجارة الخشب ، التى جعلت لميناء الإسكندرية و ضعية خاصة أرتبطت بتجارة العبور فكانت تعمل فى نقل تجارة الأجانب أكثر من اشتغالها بتناول التجارة لحسابها الخاص مع العالم الخارجى مما جعل الإسكندرية مجرد مخزناً كبيراً لتجارة البحر المتوسط ، حيث تزدحم بتجارة المغرب والبندقية والقسطنطينية مما أضفى عليها سلبية واضحة ، ويغلب أن يكون أحد أسباب هذه السلبية هو حاجة مصر إلى الخشب (١٢٥) .

لذا كان إحتكار الخشب هو السمة الغالبة على سياسة الفاطميين ، وطوال العصر الفاطمى فى فترات القوة والضعف ، تلونت هذه السياسة بحسب الاحتياج الشديد الذى كان فى البداية من أجل التوسع ثم من أجل التجارة . ومن هنا أختلف أسلوب الخلفاء فى كيفية التعامل فى الفترتين سواء من خلال فرض أرادتهم أو إستخدام الدبلوماسية مع متغيرات السياسة الدولية والعقبات التى وضعتها بيزنطة فى سبيل حصول مصر عليه ، وكما أنها إستطاعت أن تحكم قبضها على إنتاجه وإستيراده ، لأنه لم يكن هناك مفراً من إحتكاره و بذلك مثل الخشب القمة فى ممارسة الدولة الفاطمية للإحتكار نظراً لأرتباطه بعجله السياسة الدولية والمقدرات المحلية .

الهوامش

(١) أر شيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (٥٠٠ – ١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ص ٨٩ .

(٢) جمال حمدان ، شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان،القاهرة ١٩٨١،جـ٢ص٧٧٥.

(٣) نفس المرجع ، ص ٧٨٧ .

(٤) نفس المرجع ، جـ ١ القاهرة ١٩٨٠ ، صفات ٤٢ – ٤٣ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٨٩ ، جـ ٢ ، ص ٧٨٧ .

(٦) أدم متز ،الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة بيروت ١٩٦٧ ، جـ ٢ ، ص ٣٣١ .

(٧) محمود إسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ١٩٨٠ جـ ٢ / ١ ، صفحات ١٣٢ – ١٣٣ .

(٨) نفس المرجع ، ص ١٣٤ .

(٩) نفس المرجع ، ص ١٣٧ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ١٣٩ .

(١١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٥٣ .

(١٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ١٠٠ .

(١٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، القاهرة ١٩٨٢ ، جـ ٨ ، ص ١٢٩ .

(١٤) لويس ، المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

(١٥) متز ، المرجع السابق ، ص ٣٢٤ . أما غابات الخشب قد خفت فى غرب المملكة الإسلامية منذ القدم ، ولم يكن بالمشرق غابات إلا فى الاجزاء المتطرفة البعيدة .

(١٦) هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى . عربه أحمد محمد رضا ،الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٩١ ، ص ٣٤ .

(١٧) لويس ، المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(١٨) نفس المرجع ، ص ١١٢ .

(١٩) نفس المرجع .

(٢٠) نفس المرجع Wiet L, Egypte Arabe Histoire de La nation Egyptienne .iv , p p . 174 - 175 .

(٢١) ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٥٨ .

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٢٣) نفس المرجع ، ص ١٢٥ .

(٢٤) تم تعريب العمنه عام ٧٤ هـ / ٦٩٣ م ، ثم ضرب الحجاج الدراهم أخر العام الثانى . ثم أمر الخليفة بضربها فى جميع النواحى عام ٧٦ هـ / ٦٩٥ م . ومن هنا جاء الأختلاف فى وقت تعريبها . انظر . البلاذرى ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٤٥٣ .

(٢٥) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٢٦) نفس المرجع ، ص ١٨٤ .

(٢٧) نفس المرجع ، ص ١٩٨ .

(٢٨) نفس المرجع ، ص ١٧٨ .

(٢٩) هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٨٥ ،جـ ١،ص١٢٥ .

(٣٠) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، بيروت ١٩٨٣ ، جـ ١ ، صفحات ١٠٢ ، ١١١ ، ١١٣ .

(٣١) ابن حوقل ، صورة الأرض ليدن ١٩٣٨ ، ص ١١٧؛ ياقوت ، معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ ، جـ ٣ ، ص ١١٦ .

(٣٢) كانت افريقية غنية بالخشب الذى وجد فى بونة وبجاية ، فضلاً عن الحديد . أنظر البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، باريس ١٩١١ . صفحات ٥٤ ، ٧٠ ، الأدريسى ، نزهة المشتاق فى إختراق الأفاق صفحات ٩٠ – ٩١ ، ١١٦ – ١١٧ .

(٣٣) الاصطخرى ، المسالك الممالك ، ليدن ١٩٣٧ ، ص ٦٣ .

(٣٤) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣١٠ .

(٣٥) أبو الفدا،مختصر أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥،جـ ٢،صفحات ٨٣،٨٥؛ Brehier, L, vie et Mort de Byz ance, paris 1948 . p p . 174 . 191 .

(٣٦) لويس ، المرجع السابق ، ص ٣٠٢ .

(٣٧) نفس المرجع .

(٣٨) متز ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٣٩) هايد ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .

(٤٠) نفس المرجع .

(٤١) انظر Goitein , S, D, A Mediterranean society Los Angeles. 1967, 7 , p . 46

(٤٢) أرسل الروم جيش كثيفا إلى حلب ، فلما سمع أبو المعالى خبرهم ، فارق حلب وحاصروا البلد وفيه قرغويه ، فملك الروم المدينة واستقر الأمر بينهم عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م على هدنة مؤبدة على مال يحمله قرغوية إليهم ، وأن يكون للروم إذا أرادوا الغزاة ، وأن لا يمكن قرغوية أهل القرايا من الجلاء عنها ليبتاع الروم ما يحتاجون إليه منها . أبن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٦٠٤ .

(٤٣) لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٩٣ .

(٤٤) هايد ، تاريخ التجارة ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .

(٤٥) المرجع السابق ، ص ٣١٦ .

(٤٦) نفس المرجع ، ص ٣٠٣ .

(٤٧) هايد ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ١٢٩ وما بعدها .

(٤٨) المقريزى، المواعظ والأعتبار بذكر الخطط والأثار بيروت، جـ ١،ص ٤٨٣؛ جـ ٢،ص ١٩٥ .

(٤٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، صفحات ٦٤٠ – ٦٤١ .

(٥٠) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٠٣ .

(٥١) المقريزى،اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة١٩٦٧،جـ١ص١٣١.

(٥٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٩٦ .

(٥٣) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ .

(٥٤) نفس المصدر ، ص ٢٢٧ .

(٥٥) يحيى بن سعيد الأنطاكى ، تاريخ ، بيروت ١٩٠٩ ، ص ١٧٨ .

(٥٦) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٩٦ .

(٥٧) نفس المصدر .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ١٧٩ ، متز ، الحضارة الاسلامية ، جـ ٢ ، ص ٤٣ .

(٥٩) نفس المصدر .

(٦٠) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٥٠ .

(٦١) ابن تغرى بردى،النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة جـ٤،٥٧ .

(٦٢) لويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص ٣٣٥ .

(٦٣) يحيى بن سعيد ، تاريخ ، ص ٢٤٣ .

(٦٤) المرجع السابق ، ص ٣٧٩ .

(٦٥) Shaban. M.A , IsLamic History , ANEW INTERPRETATION A . D 750 - 1055 (A . H - 132 - 44 8) London . 1976 . p . 203

(٦٦) Ashtor. E . social and economic History Of The Near east in the middle Ages , London , 1976 , p 192

(٦٧) انظر op . cit

(٦٨) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٣٦ .

(٦٩) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، حققة أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٦٤ وما بعدها ؛ النجوم ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ .

(٧٠) نفس المصدر ، ص ٧٤ ؛ المقريزى ، اتعاظ ، جـ ٣ ، صفحات ٤٣ – ٤٤.

(٧١) نفس المصدر ، ص ٩٥ .

(٧٢) نفس المصدر ، ص ١٤٥ .

(٧٣) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ١٧١ .

(٧٤) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الدولة العثمانية ، نقلة إلى العربية بدر الدين القاسم،بيروت ١٩٨٣،ص ٢١٩.

(٧٥) راشد البراوى،حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين،القاهرة ١٩٤٨،ص٢٥ .

(٧٦) هايد ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، صفحات ٤١ – ٤٢ .

(٧٧) نفس المرجع .

(٧٨) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٤٣ ففى العام السابق على الاتفاقية كان هناك تجارا من بيزا فى سفينة مع بعض رعايا الخليفة ، فقتلوا الرجال منهم وأسروا الأطفال واستولوا على ما معهم من بضائع .

(٧٩) نفس المرجع .

(٨٠) نفس المرجع .

(٨١) نفس المرجع ، ص ٤٤ .

(٨٢) نفس المرجع ، ص ٤٠ .

(٨٣) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، صفحات ١١٠ – ١١١ .

(٨٤) نفس المصدر .

(٨٥) نفس المصدر .

(٨٦) ابن ماتى،قوانين الدواوين،تحقيق عزيز سوريال عطية،القاهرة ١٩٤٣،ص٣٤٥.

(٨٧) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٤ . وقد حرفت كلمة لبخ إلى كلمة بنج . انظر . متز ، الحضارة الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٨٨) كان للخلفاء الفاطميين عدة بساتين يتنزهون فيها منها البساتين الجيوشيه ، قبة الهوا وبها عدة بساتين ، قصر الورد بقليوب وغيرها . انظر . المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٨٧ وما بعدها .

(٨٩) نفس المصدر وقد وصل عدد الشجر فى البساتين الجيوشيه ١٢٠٠ شجرة .

(٩٠) المقدسى،أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم –ليدن بريل ١٩٠٦ ، ص ٢٠١ .

(٩١) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، صفحات ٢٣٢ – ٢٣٣ .

(٩٢) نفس المصدر .

(٩٣) جروهمان ،أوراق البردى العربية ترجمة عبد العزيز الدالى ،القاهرة ١٩٧٤ ، جـ ٦ بردية رقم ٣٩٨ م ترجع إلى ق ٣ هـ/ ٩ م صفحات١٢٤– ١٢٦ تشير إلى حساب حطب لتاجر خشب .

(٩٤) نفس المصدر ، جـ ٥ بردية رقم ٣٦ ترجع إلى ما بعد عام٣٤٤هـ/٩٤٥م صفحات ٨٥ – ٦١ .

(٩٥) البراوى ، المرجع السابق ، ص ١٧١ .

(٩٦) هايد ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

(٩٧) المخزومى ، المنتقى من كتاب المنهاج فى علم الخراج ، تحقيق كلود كاهن القاهرة١٩٨٦،ص ٩.

(٩٨) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٠٤ .

(٩٩) المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة – جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ، صفحات ٢٠ – ٢١ .

(١٠٠) ابن ميسر ، أخبار ، ص ٨٣ .

(١٠١) المقريزى ، إتعاظ ، جـ ٣ ، ص ١٧١ .

(١٠٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٦ .

(١٠٣) الشيال ، مجمل تاريخ دمياط ، القاهرة ، الصفحات ٦٦ ، ٦٧ .

(١٠٤) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٩٥ ،حمل خروار أى حمل حمار نفس المصدر ،هامش ٢ .

(١٠٥) القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٧٧ .

(١٠٦) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، بيروت ١٩٨٦ ،صفحات ٩١ ، ٩٣ .

(١٠٧) البلاذرى ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٧٧ .

(١٠٨) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، باريس ١٩١١ ، ص ٣٨ .

(١٠٩) سيدة كاشف ، مصر فى عهد الأخشيديين القاهرة ١٩٨٩ ، ص ٢٤٨ وما بعدها .

(١١٠) المسبحى ، أخبار مصر فى سنتين ٤١٤ هـ – ٤١٥ هـ ، تحقيق وليم ج ميلورد ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٦١ .

(١١١) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٩٤ .

(١١٢) نفس المصدر ، ص ١١٣ .

(١١٣) القلقشندى ، المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٥٢ .

(١١٤) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

(١١٥) ابن جبير ، الرحلة ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٦٧ .

(١١٦) المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ١٧١ .

(١١٧) المسبحى ، أخبار ، ص ١٢٠ .

(١١٨) عشارى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٤٧ وما بعدها .

(١١٩) انظر Goitein . Med . soc . 1 , p 309 .

(١٢٠) انظر Ibid , p . 310

(١٢١) المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ١٩٨ .

(١٢٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، صفحات ١٩٥ – ١٩٦ .

(١٢٣) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٨ .

(١٢٤) البراوى ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

(١٢٥) لويس ، المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .